فخرج الى المديح من غير أن يكون هناك له سبب من الأسباب كما ترى ، ومن ذلك ما قاله أبو نواس فى قصيدته التى مطلعها قوله (يَا كثيرَ النَّوْحِ فِى الدِّمَنِ) فضمّنها غزلاً كثيراً ثم قال بعد ذلك

تضحكُ الدنيا الى مَلِكٍ * قامَ بالآثار والسُّنَنِ
سَنَّ للناس النَّدَى فَنَدُوا * فكأَنَّ المَحْلَ لم يَكُنِ

وأكثر مدائح أبى نواس مؤسّسةٌ على الاقتضاب من غير ذكر التخلص وفيما ذكرناه كفاية عن ابانة التخلص والاقتضاب فهذا ما اردنا ذكره فيما يختص بالدلائل المركبة وهو الباب الثالث

الباب الرابع

(من فن المقاصد فى ذكر انواع علم البديع وبيان أقسامه)

اعلم أن ما أسلفنا ذكره فى الباب الأول انما هو كلامٌ فيما يتعلق بكيفية الوضع ، إما فى الأصل فيكون حقيقة ، أو فى غيره فيكون مجازا ، والبابُ الثانى انما هو كلام فى الدلائل من جهة الالفاظ الإفرادية ، والباب الثالث إنما هو كلام فى

الدلالات المركبة ، وأمّا الباب الرابع فانما هو كلام فيما يعرض لجوهر اللفظ من الألقاب بحسب تأليفه ، لا من جهة دلالته على معناه ، وإنما دلالتُه على معناه تابعةٌ لذلك ، وهذا هو الذى يلقّب بعلم البديع فى ألسنة علماء البيان ، وينقسم الى ما يكون متعلقاً بالفصاحة اللفظية ، والى ما يكون متعلقاً بالفصاحة المعنوية ، فهذان نَمَطَان نذكر ما يتعلق بكل واحد منهما بمعونة الله تعالى

(النَّمَط الاول)

(ما يتعلق بذكر الفصاحة اللفظية وبيانها)

اعلم أنّا قد ذكرنا أن الفصاحة من عوارض الألفاظ ، وأن البلاغةَ من عوارض المعانى ، ومنهم من قال انهما مستويتان دالتان على مقصود واحد فلا يكون الكلام فصيحاً الا وهو بليغ ، ولا يكون بليغاً الا وقد حاز الفصاحة ، ومنهم من زعم أن الفصاحة أعم من البلاغة فالكلام يوصف بالفصاحة وإن لم يكن بليغا ، ولا يعقل كونُ الكلام بليغاً الا مع كونه فصيحا ، والامرُ فى ذلك قريب ، خلا أن أكثر أهل البلاغة قائلون بأنهما مقولان على جهة الترادف أعنى

البلاغة والفصاحة ، والى هذا ذهب الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، والأقلون على ان البلاغة من أوصاف المعانى والفصاحة من وصف الالفاظ ، وهذا هو الأقرب كما قررناه فى اول الكتاب فلا وجه لتكريره ، فاذا عرفت هذا فلنذكر ما يتعلق بالفصاحة اللفظية من علم البديع وهو مشتمل على أصنافٍ عشرين ، نذكرها بأمثلتها بمشيئة الله تعالى

(الصنف الاول)

(التجنيس)

وهو تفعيل من التجانس وهو التماثل ، وانما سمى هذا النوع جِناساً لأن التجنيس الكاملَ أن تكون اللفظة تصلح لمعنيين مختلفين فالمعنى الذى تدل عليه هذه اللفظة هى بعينها تدل على المعنى الآخر من غير مخالفة بينهما ، فلما كانت اللفظةُ الواحدة صالحةً لهما جميعاً كان جناسا ، وهو من ألطفِ مجارى الكلام ومن محاسن مداخله ، وهو من الكلام كالغُرَّة فى وجه الفرس ، فالجنس فى اللغة هو الضرب من الشىء وهو أعمّ من النوع ، والمجانسةُ المماثلةُ ، وسُمّىَ هذا النوع جناساً لما فيه من المماثلة اللفظية ، وزعم ابن دُرَيْد أن

الأصمعى يدفع قول العامة هذا مجانس لهذا ويقول إنه مولد ، وحقيقته فى مصطلح علماء البيان هو أنْ يتفق اللفظتان فى وجهٍ من الوجوه ويختلف معناهما ، فما هذا حالُه عامٌّ فى التجنيس التامّ ، والتجنيس الناقص ، ثم إنه ينقسم قسمين نُورد ما يتعلق بكل واحد منهما بأمثلته بمعونة الله تعالى

(القسم الاول)

(التجنيس التام)

ويقال له المستوفَى ، والكامل ، وهو أن تتفق الكلمتان فى لفظها ، ووزنهما ، وحركاتهما ، ولا يختلفان الاّ من جهة المعنى ، وأكثرُ ما يقع فى الالفاظ المشتركة ، ومثاله من كتاب الله تعالى (ويومَ تَقُومُ الساعةُ يُقْسِمُ المجْرمُونَ ما لبثوا غير ساعة) وليس فى القرآن من التجنيس الكامل الا هذه الآية ، فالساعة الاولى عبارة عن القيامة ، والساعة الثانية هى واحدة الساعات ، لكنّهما اتفقا لفظاً فلهذا كان جناساً تامًّا ، ومن السنة النبوية قوله صلى الله عليه وآله : لما نازع الصحابةُ جريرَ بن عبدالله فى أُحُدٍ زِمَام ناقةِ الرسول صلى الله عليه وسلم أَيُّهُمْ يقبِضُه، فقال عليه السلام خَلُّوا بين

جرِيرٍ ، والجَرِير ، لا يُقال كيفَ يكون مَا ذكرتموه من الكتاب والسنة مثالاً للتجنيس التامّ مع اختلافهما فى التعريف والتنكير ، لأنا نقول هذا فيه وجهان ، أحدُهما أن يقال إِنه لم يقع الاختلاف الا فى لام للتعريف وهى زائدة ، وما هذا حالُه فليس مُغيّراً للتمثيل ، وثانيهما أن يقال كما أن إِختلاف الحركة يُبطل جعله من التجنيس التامّ فهكذا زيادةُ الحرف تُخرجه عن التجنيس التامّ أيضا ، والحقُّ أنه معدود منه ، وأنشد ابن الأثيرلأبى تمام قال

فأصبحتْ غُرَرُ الأيام مشرقةً

بالنصر تضحكُ عن أيّامِكَ الغُرَرِ

فعدّه تجنيساً تامًّا مع أن الأول مضاف والثانى معرّف باللام ، ومن ذلك ما قاله ايضا

ما ماتَ من كرَمِ الزمانِ فإِنه * يحيى لدى يحيى بنِ عبدِ اللهِ

ومنه قولهم : لولَا اليمينُ لقبَّلْتُ اليمينَ ، فاليمين الاولى الأليَّة، واليمين الثانية هى الجارحة ، ومنه قولهم : ما مَلأَ الراحةَ مَن استوطن الراحة ، فالراحةُ الاولى هى الجارحة ، والراحة الثانية هى نقيض الشقاء ، وقد أكثر من هذا النوع أبو تمام فأحسن فيه كل الاحسان ومنه قوله

اذا الخيلُ جابَتْ قَسطَل الحرب صدَّعُوا

صُدُورَ العوالى فى صُدورِ الكتائب

ومن ذلك ما قاله أبو جعفر النّامى

لشُؤُونِ عينى فى البكاء شُؤُنُ

وجفونُ عينِك للبلاء جفونُ

ومن أحسن ما وجدته فى ذلك للشاعر المعروف بالمغربى وقد أكثَرَ منه

لو زارنا طَيْفُ ذاتِ الخَالِ أحيانا

ونحنُ فى حُفَرِ الأَجْدَاثِ أحيانا

تقول أنتَ امرؤٌ جَافٍ مُغَالِطَةً

فقلت لا هَوَّمَتْ أجفَانُ أجفَانا

لم يبق غيركِ انسانٌ يُلَاذُ به

فلا برحْتِ لعين الدهر إنسانا

فالكلمتان كما ترى فى هذه الأمثلة لا اختلاف فيهما الا من جهة المعنى ، يستويان فى الانتظام فى الحروف ، والحركات ، كما ترى وله أمثلة كثيرة

﴿ القسم الثانى ﴾

(من التجنيس)

ويقال لهُ الناقص ، والمشبَّه ، وهو يأتى على أنحاءٍ مختلفة ، وحاصله أنه يتطرّفُ اليه الاختلاف بوجه من الوجوه كما تراه ، وهو يأتى على أضرب عشرة

(الضرب الاول)

يلقب بالمختلف ، وما هذا حاله يكون اختلافه بالحركات لا غيرُ ، فأمّا الاحرف فيه فانها متماثلةٌ ، ومثاله قولهم : لا تُنَالُ الغُرَر ، الاّ بركوب الغَرر ، وقولهم : البدعةُ شرَكُ الشرْك ، وقولهم : الجاهلُ إِمّا مُفْرِط أو مُفَرّط ، وقد وقع فى الحريريّات كقوله ، فلمّا استأذنَه فى المَرَاح الى المُرَاح على كاهل المِرَاح ، فقد وُجد فى الميم ثلاثُ حركات كما ترى ، ومنه قوله نظما

فقلت للائمى أقصر فانى * سأختارُ المَقام على المُقام

(الضرب الثانى)

المختلف بالأحرف وتتفق الكلمتان فى أصل واحدٍ

يجمعها الاشتقاق ، وما هذا حالُه يقال له المطلقُ ، ومثاله قول جرير

فما زال معقُولاً عِقَالٌ عن النَّدى

وما زال محبوساً عن المجدِ حَابِسُ

وانما سُمّى مطلقاً لأنه لمّا كانت حروفه مختلفة ولم يُشترط فيه أمرٌ سواه قيل له مطلق

(الضرب الثالث)

ان لا يجمعها الاشتقاق لكن بينهما موافقةٌ من جهة الصورة مع أن إحداهما من كلمتين ، والأُخرى من كلمة واحدة ، وما هذا حالُه يُلقّب بالمركب لما يظهر فيه من أحد الشقين من التركيب ، ثم هو على وجهين ، الوجه الاول أن يكون متشابهاً من جهة اللفظ لا من جهة الخط ، وما هذا حاله يُقال له المفروق ، ومثاله قولهم من ظلم نَمْلَه ، فنَمْ لَه ، وقولهم لا تَقْعُد تحْتَ رِقّ ، تَحْتَرِق ، وفى الحريريّات : أَزْمَعْتُ الشخوصَ من بَرْقَعِيد ، وقد شِمْتُ بَرْقَ عِيد ، ومن النظم ما قاله البُسْتىّ

اذا ملكٌ لم يكن ذَا هِبَه   فدَعْهُ فدَوْلَتُـهُ ذاهِبَه

ومن ذلك ما قاله بعضهم

وكم لجباهِ الراغبين لديه من   مجال سجود فى مجالس جود

وفى الحريريات فَمِحْرَابِى أَحْرَى بِى، وأَسْمَالِى أَسْمَى لى ، وقول بعضهم فَهِمْنَا لَمَّا فَهِمْنَا،فالأول من الهُيَام والثانى من الفهم ، الوجهُ الثانى أن تكونَ المشابهة بينهما من جهة اللفظ والخطّ ، وما هذا حالهُ فإنه يُلقّب بالمَرْفُوّ ، وانما لُقّب به لأن المقصود هو الجمع بين كلمتين ، احدهما أقصر من الأخرى ، فيُضم الى القصيرة ما يُوازى الكلمة ويرفوها بذلك حتى يعتدل رُكْنَا التجنيس ، ومثاله قول بعض البلغاء : يا مغرورُ أمسكْ ، وقسْ يومَك بأمْسك، فزيدت كافُ الضمير فى الثانية من أجل أَن تساوى الأولى ومن ذلك قول البُسْتى

فهِمْتُ كتابَك يا سيّدى
فهِمْتُ ولا عجبٌ أنْ أهِيمَا

ومن ذلك ما قاله ايضا

اذا مَلِكٌ لم يكن ذا هبه   فدعه فدولته ذاهبه

ومنه قولُ بعضهم فهِمْنَا لمّا فَهِمنا ، فاللفظتان متساويتان من جهة لفظهما وخطّهما ، وما أوردناه من هذه الامثلة أمثلةِ

المرفوّ، فى المفروق، فإنما كان على جهة الذهول والنسيان والحقيقة أنها أمثلة المَرْفُوّ

(الضرب الرابع)

المُذَيَّل ، بالذال المعجمة ، وهو أن تجىء الكلمتان متجانستى اللفظ متفقتى الحركات والزِّنة ، خلا أنه رُبَّما وقع بينهما مخالفة ، ثم تلك المخالفةُ على وجهين ، الوجه الأول منهما أن تختص إِحدى الكلمتين بحرف يخالف الأخرى من عَجُزها ، ومثاله قولهم فلان سالٍ من أحزانه ، سالمٌ من زمانه ، حَامٍ لعِرْضه ، حَامِلٌ لغَرَضه ، فآخر سالٍ ياءٌ ، وآخر سالم ميمٌ ، مع اتفاقهما فيما عدا ذلك من الحروف والحركات ، ومن ذلك ما قاله ابو تمام

يمدُّون من أيدٍ عوَاصٍ عواصمٍ
تَصُولُ بأَسْيَافٍ قواضٍ قواضبِ

فآخرُ عواصٍ ياءٌ ، وآخر عواصم ميمٌ ، وآخر قواضٍ ياءٌ وآخر قواضب الباء ، ومن ذلك ما قاله البحترى

لئن صَدَفَتْ عنّا فرُبَّتَ أَنْفُسٍ
صَوَادٍ الى تلك النفوس الصّوادِف

فآخرُ صوادٍ هى الياء ، وعجزُ صوادف الفاء ، مع اتفاقهما فيما عدا ذلك ، الوجه الثانى أن تختلف الكلمتان من أولهما ، ومثاله قوله تعالى (والْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاق الى ربك يومَئذٍ المَسَاق) فلم يختلف الساق والمساقُ الاّ بزيادة الميم فى المساق ، ومن ذلك ما وقع فى الحريريات قوله : يَسْخُو بمَوْجُودِه ويَسْمُو عند جُوده ، فلم يختلفا فى نظم ولا زِنَةٍ الاّ بزيادة الميم فى موجوده ، والواو أيضا ، وقوله أيضاً نظما

لم يبق صافٍ ولا مُصَافٍ ✻ ولا مَعِينٌ ولا مُعِينُ

فلم يختلف صافٍ ، ولا مُصَافٍ الا بزيادة الميم لا غيرُ ، ومن ذلك ما أنشده الشيخ عبد القاهر الجرجانى

وكمْ سبقَتْ منه الىَّ عوارفٌ
ثنائى من تلك العوارفِ وَارِفُ
وكم غُرَرٍ من بِرِّهِ ولطائفٍ
لشكرى على تلك اللطائفِ طَائفُ

وقد يلقب ما ذكرناه بالتجنيس الزائد والناقص كما مرّ تقريره بالأمثلة

(الضرب الخامس)

(المُزْدَوِج)

وهو أن تأتى فى أواخر الأسجاع فى الكلام المنثور ، أو القوافى من المنظوم ، بلفظتين متجانستين ، إحداهما ضميمةٌ الى الأخرى على جهة التَّتمَّة والتكملة لمعناها ، ومثاله من النثر قولُهمُ : مَنْ طَلَبَ شيئاً وجَدَّ وَجَدْ ، ومن قرع باباً ولَجَّ ولَج ، ومن الحريريات قوله : إذا بَاعَ انبَاع ، واذا مَلأَ الصَّاعَ انصاعْ ، فتجد الكلمة الثانية مُرْدَفةً على جهة التجانس ليكمل معناها وتُقَرَّرَ فائدتُها ، ومن النظم ما قاله البستى

أبا العبّاسِ لا تحسِبْ لشَيْني
بأنّى من حُلاَ الأَشْعَارِ عَارِ
فلِى طَبْعٌ كسلسالٍ مَعِينٍ
زُلاَلٍ من ذُرَى الأحْجَارِ جَارِ
اذا ما أَكْبَتِ الأدْوَارُ زَنْدًا
فلى زندٌ على الأَدْوَارِ وَارِ

ومن هذا ما قيل فى الحريريات

بُنَىَّ استقِمْ فالعودُ تَنمِى عرُوقُه
قويمًا ويغشَاهُ إِذا ما الْتَوَى التَّوَى
ولا تُطعِ الحِرْصَ المُذِلَّ وكُنْ فَتًى
اذا التهبتْ أحشاؤه بالطَّوَى طوَى

وانما لُقّب هذا بالمزدوج لما يظهر بين الكلمتين من الاستواء ، ومنه الازدواجُ ، وهو الاستواء، ويقال له التجنيسُ المُردّد ، ويقال له المكرّر أيضا ، وينقسم الى ما يكون الازدواج وارداً على جهة الانفصال ، فى الكلمتين جميعا ، كقولك : من جَدَّ وَجَد ، ومَن لَجَّ ولَج ، والى ما يكون الازدواج وارداً على جهة الانفصال فى إحداهما والاتصال فى الأخرى ، كقولك اذا ملأ الصَّاعَ انصاع ، وكالأبيات التى حكيناها عن البستى

(الضرب السادس)

(المُصحَّف)

وهو عبارة عن الإتيان بكلمتين متشابهتين خطًّا لا لفظا ، ويقال له تجنيس الخط أيضا ، ومثاله من كتاب الله تعالى قوله (وهمْ يحسبُونَ أنَّهمْ يُحْسِنُون صُنْعاً) ومن السنة

النبوية قوله صلى الله عليه وسلم : عليكم بالأبكار فانهنَّ أشَدُّ حُبًّا وَأَقَلُّ خبًّا ، والخِبُّ الخداع ، وقولُ أمير المؤمنين : قَصِّرْ من ثيابك فإِنَّهُ أبْقَى وأَتْقَى وأَنْقَى ، ومنه قول البحترى يمدح المعتزّ بالله

ولم يكنِ المُغْتَرُّ بالله إِذْ شرَى * ليُعْجِزَ والمُعْتَزُّ بالله طالبُه

وانما لُقّب ما هذا حالُه بالمصحّف ، لأن من لا يفهم المعنى فإِنه يصحّف أحدهما الى الآخر لأجل تشابههما فى وضع الخط كما ترى ويقال له المرسوم أيضا ، ومن هذا قول بعضهم غَرَّكَ عِزُّك فصارَ قُصارَى ذَلِكَ ذُلَّك، فَاخْشَ فاحشَ فِعْلِك، فَعَلَّكَ بهذا تُهْدَى ، وقوله فى الحريريات فملتُ لمُجاورته الى مُحاوَرَتِه ، ولا يزكو بالخَيْف مَنْ يرغب فى الحَيْف، ومن ذلك ما قاله أبو فراس

مِن بحْر شعرِكَ أغْتَرِف ... وبفضْل عِلْمِك أعترف

وغير ذلك

(الضرب السابع)

(المضارع)

وهو أن يجمع بين كلمتين هما متجانستان لا تفاوت

بينهما الا بحرف واحد سواء وقع أوّلاً أو آخرا أو وسطا حَشْواً ، والمضارَعة المشابهة وسمى الضّرْعُ ضَرْعاً ، لانه يشابه أخاه فى الصورة ، فلما تشابها فى هذا الحرف لُقّب بالمضارع لما ذكرناه ، ثم يقع على وجهين ، الوجهُ الأول أن يقع الاتفاق فى الحروف المتقاربة ، ومثاله قوله عليه السلام : الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخيرُ ، فاللام والراء متقاربان ، وفى الحريريات لهم فى السير جَرْىُ السيل ، والى الخير جَرْىُ الخيل ، وقوله وبينى وبين كِنىّ ليل دامِس ، وطريقٌ طامس ، وقوله ويطفى حرّ بلبالى ، بسربال وسربال ، الوجه الثانى أن يقع فى الحروف التى لا تقارب فيها ، ومثاله قوله تعالى (فاذا جاءَهُمْ أمْرٌ من الأمْنِ) فالنون والراء متباعدان ، ومن ذلك قولهم : المكارمُ بالمكارِه ، والتواضع شَرَكُ الشرف ، وفى الحريريات ولا أُعطِى زمامى ، مَن يُخفِر ذِمامى ، ولا أغْرِس الأيادى ، فى أرض الأعادى ، ومن ذلك ما قاله البحترى

ألِمَا فاتَ من تَلاَقٍ تلاَفِ * ام لِشاكٍ من الصبابه شافِ

وما هذا حاله يُقال له التجنيسُ اللاحق ، والتجنيس الناقص ، والأمرُ فيه قريبٌ بعد الوقوف على القيود التى يتميز بها عن غيره كما أشرنا اليه

(الضرب الثامن)

(المشوّش)

وهو عبارة عن كل جنس من التجنيس يجاذبه طرفان من الصيغة ، ولا يمكن إطلاق اسم أحدهما عليه دون الآخر ، واشتقاقه من قولهم تشوَّش الأمرُ اذا مُزِجَ واختلط بعضه ببعض ، ومنه قولهم فلان متشوّش ، اذا كان به مَرَضٌ من اختلاطِ المِزَاج وتغيُّرِه ومثاله قولهم : فلان مليحُ البلاغة ، لَبيقُ البَراعَة ، فلو اتفق العينان فى الكلمتين وكانتا من حرف واحد لكان ذلك من تجنيس التصحيف أو كان اللامان متفقين لكان ذلك من المضارع ، فلمّا لم يكن كما ذكرناه بقى مُذَبْذَبًا بين الامرين ، ينجذبُ الى كل واحد منهما بشَبَه ، ومنه قولهم : صَدَّعَنِي مُذْ صَدَّ عَنِّى فلولا تشديدُ النون لكان معدوداً من تجنيس المركّب ، ومن الحريريات قوله وندِمنا على ما نَدَّ مِنّا

(الضرب التاسع)

(المعكوس)

وله فى التجنيس حلاوةٌ ويُفيد الكلام رونقاً وطُلاوة ،

وقد سمّاه قدامة الكاتب بالتبديل ، وكل واحد من اللقبين يصدق عليه ، لأن صاحبه يقدّم المؤخر من الكلام ويؤخر المقدّم منه ، فلهذا لقّبه بالعكس ، وهكذا فإنه يبدّل الألفاظ فيقدّم ما كان منها مؤخراً ويؤخر ما كان منها مقدما، ويقع في الألفاظ والحروف جميعاً فهذان وجهان، الوجه الأول منهما أن يكون واقعاً في الألفاظ ، ومثاله قول بعضهم : عاداتُ الساداتِ ، ساداتُ العاداتِ ، وكقول الآخر شِيَمُ الأحرارِ أحرارُ الشيم ومنه قول الاضبط

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكِلِهِ
ويأكل المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ
ويَقطَعُ الثوبَ غيرُ لابسِهِ
ويلبَسُ الثوبَ غيرُ مَنْ قطعَه

ومن ذلك ما قاله الشريف المرتضى يذم الزمان وأهلَه

أسَفَّ بِمَنْ يَطيرُ الى المعالى وطَارَ بِمَنْ يُسِفُّ الى الدّنَايا

وكقول الآخر

إنّ الليالىَ للأنام مناهلٌ
تُطْوَى وتُنْشَرُ بينَهَا الأعمارُ

فقصارهن مع الهموم طويلة

وطوالهن مع السرور قصارُ

ومن هذا قوله تعالى (يُخرِجُ الحيَّ من الميّتِ ويُخرِجُ الميتَ مِنَ الحيِّ) وقوله صلى الله عليه وسلم: جارُ الدار أحقُّ بدارِ الجارِ ، ومن ذلك ما قاله أمير المؤمنين كرّم الله وجهه من كتاب كتبه الى عبد الله بن العباس أمّا بعدُ فإنَّ الإنسان يسرُّه دَرْكُ مالم يكن ليفوتَه ، ويسوءه فَوْتُ ما لم يكن ليُدْرِكَه ، فلا تكن بما نِلْتَ من دنياك فَرِحا ، ولا بما فاتك منها تَرِحاً ، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمَل ، ويُؤَخِّرُ التوبة بطول أمَل ، قال ابن عباس ما انتفعْتُ بكلام بعد كلام الله تعالى مثلِ هذا الكلام ، وأنا أقول أيضاً ما قرَع مسامعى مرّةً بعد مرّة الا وأحدث لى موعظةً ، وأنشأ لى عن الغفلة يقَظَة ، وحكى عن أبى تمام أنه لما قصد عبد الله ابن طاهر بخُراسان وامتدحه بقصيدته المشهورة التى مطلعها (هن عَوادِى يوسف وصواحِبُه) أنكر عليه ابو سعيد الضرير وابو العَمَيْثَل هذا المطلع ، وقالا له ، مالك تقول مالا تفهم فقال لم لاَ تَفْهما ما يُقال ، فاستحسن منه هذا الجواب على الفَوْر ، فهذا معكوس الألفاظ ، الوجه الثانى أن يكون واقعاً

فى الأحرف وهذا كقوله تعالى (كلٌّ فى فَلَكٍ) فما هذا معكوسُه ومستويهِ متماثلان كما ترى ، وليس مما نحن به ، وإنما الذى نُريد ذكرَه ههنا هو أنّ مستويه يفيد معنى ، ومعكوسَه يفيد معنى آخر ، ومثاله ما قاله بعض الاذكياء من أهل الشعر

اهديت شيئاً يَقِلُّ لولا أُحدُوثَةُ الفَال والتَبَرُّك
كُرْسِى تفاءلتُ فيه لمَّا رأيتُ مقلُوبه يَسُرُّك

وهكذا قال غيره

كيف السرور بإِقبال وآخِرُه
إِذا تأملتـه مقلوب إِقْبال

وأراد أن مقلوب إِقبال لا بقاءَ ، ولقد صدق فيما قال فانه لا سرور فى الحقيقة بإِقبال آخرُه التغيُّر والانتقال ، ومن هذا ما قاله بعضهم

جاذَبْتُهَا والريحُ تَجْذِبُ عقْرَبًا
من فوقِ خدٍّ مثلِ قلْبِ العَقْرَبِ
وطفقتُ أَلْثِمُ ثَغْرَهَا فتمَنَّعَتْ
وَتَحَجَّبَتْ عَنِّى بِقَلْبِ العَقْرَبِ

فقلبُ العقرب الأول هو عبارة عن الكوكب الأحمر ،

وقلبُ العقرب الثانى هو عبارة عن البُرْقُع، لأنه قلبُه اذا قَلَبْتَه اليه

﴿ الضرب العاشر تجنيس الإشارة ﴾

وهو أن لا يذكر أحد المتجانسين فى الكلام ولكن يُشار اليه بما يدلّ عليه وهذا كقول بعضهم

حُلقَتْ لِحيَةُ مُوسى باسْمِهِ وبِهَرُونَ إِذا مَا قُلِبَا

ولا شك أنك اذا قلبتَ هرون من آخره فهو يكون نُورَه ، لكنّه لم يذكر لفظ النّورَه ولكنه أشار اليها إشارة بقوله (وبهَرون اذا ما قلبا) ومن ذلك ما قال بعضهم

وما أَرْوَى وإِن كَرُمَتْ علينا
بأَدْنَى من مُوَقَّفَةٍ حَرُونِ
يُطِيف بها الرُّمَاةُ فَتَتَّقِيهِمْ
بأَوْعَالٍ مُعَطَّفَةِ القرونِ

فقوله (أروى) المذكورة فى البيت هى المرأة وقوله موقفة حرُون ، يشير بها الى (أروى) الأوعال وأراد أن هذه المرأة التى اسمُها (أَرْوَى) ليست بأقرب من التى فى الجبال ، لكنه أعرض عن ذكرها ، فهذا ما أردنا ذكره فى التجنيس

﴿ الصنف الثانى الترصيع ﴾

وهو فى لسان علماء البيان مقولٌ على ما كان من المنظوم والمنثور من الكلام ، ألفاظُ الفصل الأول فيه مساويةٌ لألفاظ الفصل الثانى فى الأَوزان واتفاق الاعجاز ، واشتقاقُه من قولهم تاجٌ مرصَّعٌ إذا كان فيه حِليَةٌ ، والترصيعُ التركيب ، ويرد فى الكلام على وجهين ، الوجهُ الأول منهما أن يكون كاملاً ، وهو أن تكون كلّ لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساويةً لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى فى الأوزان والقوافى من غير مخالفةٍ لأحدهما للثانى فى زيادة ولا نقصان ، وما هذا حاله فانه يَعِزُّ وجُودُه ، وقليلاً ما يقع فى كلام البلغاء لصعوبة مأخذه ، وضيق مسلكه ولم يُوجَدْ فى القرآن شىء منه ، وما ذاك الا لأنه جاء بالأخفِّ والأسهل ، دون التَّعَمُّقِ النادر ، مع أنه قد أخْرَس الجنَّ والإنس ، وأيِسَ كلّ واحد منهم أن يأتى بلفظة من ألفاظه أو بأقصر سورة من سوره ، وقد زعم بعض الناس أنه يوجد فيه شىء منه ، ومثّلَه بقوله تعالى (إنَّ الأَبْرَارَ لفى نعيمٍ وإنَّ الفُجَّار لفى جحيم) وهذا جهلٌ بمعنى الترصيع وتركيبه ، فإنَّ

الفجار لا يُماثل الأبرار فى وزنه ، وهكذا قوله (لفى) فإنه كرّرها فى الفقْرَتين جميعاً ، فما هـذا حالُه فانما هو تجنيس ، وليس ترصيعاً ، وإنما يكون من الترصيع لو قال : إنّ الأبرار لفى نعيم وإنّ الاشرار لمن جحيم ، فيكون الاشرار مقابلاً للفظ الأبرار ، والجحيم مقابلا للنعيم ، (ومن) مقابلة (لفى) فى الوزن والقافية ، فهو إنما يؤثر على جهة النُّدْرة على الشرط الذى ذكرناه ، فمن ذلك ما وقع فى الحريريات من قوله : يَطبَعُ الأسْجَاعَ بجواهرِ لَفْظِهِ ، ويَقرَعُ الاسْمَاعَ بِزَواجِرِ وَعْظِهِ ، فجميعُ ما وقع في السجعة الثانية مطابقٌ لما وقع فى السجعة الأولى فى الوزن والتقفية من غير زيادة ولا نقصان (فيقرَع) بإزاء (يطبع) (والأسماع) فى مقابلة (الأسجاع) (وزواجر) بإزاء (جواهر) و (وعظه) فى مقابلة (لفظه) ومن ذلك ما قاله الشيخ عبدُ الرحيم ابن نُباته الخطيب : الحمدُ لله عاقدِ أزمَّةِ الأمور بعزائم أمره ، وحاصد أئمة الغُرور بقواصِمِ مَكْرِهِ ، ثم قال فى أثناء هذه الخطبة أَولَئكَ الذين رَحَلُوا فأَقمتمْ ، وأَفَلُوا فَنَجَمْتُم ، فما هذا حاله ترصيعٌ بالمعنى الذى ذكرته من غير مخالفة، ومن ذلك ما حُكى عن ابن الاثير

فى كلام له قال فيه : والحسن ما وشَّتْهُ فطرَةُ التصوير ، لا ما حسّنَتْهُ فكرة التَّزوير، ومن كلامه قوله مَنْ قوَّمَ أوَد أوْلادِه ، ضرَّمَ كمَدَ حُسَّاده ، وفى كلام ابن الأثير ههنا نظرٌ ، لأن الأولاد ليس مماثلاً للحساد ، ومن ذلك ما قاله بعض العرب مَنْ أطَاعَ غضبَه ، أضاع أدبَه ومِن المنظوم ما قاله بعض الشعراء

فمكارمٌ أَوْلَيْتَهَا متبرعاً وجَرائِمٌ أَلغيْتَها مُتورِّعا

فقوله مكارم ، بازاء جرائم ، واوليتها في مقابل أَلغيتها ، ومتبرعاً فى مقابلة متورعاً ، فما هذا حاله لا يقع فيه نزاعٌ بين اهل البلاغة فى كونه معدوداً من باب الترصيع ، لاجتماع الفقرتين فى الوزن والقافية ، الوجه الثانى ويقال له الناقص ، وهو أَن يختلف الوزن وتستوى الأَعجاز ، ومثاله قوله تعالى ، (إِن الأَبْرَارَ لَفِي نعيمٍ وإِنَّ الفُجَّارَ لفى جحيمٍ) فاختلافُ الوزنين فى الأبرار ، والفجار ، لا يخرجه عن كونه ترصيعاً ، وهكذا ما حُكى عن ابن نُبَاتَةَ من قوله:وموفّقٍ عبيدَه لمغانم ذكرِه ، ومُحَقّقٍ مواعيدَه بلوازم شكرِه ، وقوله : أيها الناس أسيمُوا القلوبَ فى رياض الحِكَم ،وأديموا النَّحيبَ على ابيضاض

اللّمَمْ ، وأطيلوا الاعتبارَ بانتقاص النعم ، وأجيلوا الافكار فى انقراض الأُمَمْ ، فما هذا حاله لم تتفق فيه الأَوزان ولكن استوت فيهِ الأعجاز ، وكقول الخَنساء فى أخيها صخر

حَامِى الحقيقةِ محمودُ الطريقةِ
مَهْدِىٌّ الخليقةِ نَفّاعٌ وضَرّارُ
جوّابُ قَاصيةٍ جَزّازُ نَاصيَةٍ
عَقّادُ ألويَةٍ للخَيْلِ جرّارُ

ومن هـذا قوله تعالى (إنَّ إلينَا إيابَهُمْ ثُمَّ إنَّ علينا حسابَهم) ومنه قول الآخر

سودٌ ذوائبُهـا بيضٌ ترائبُها
مَحْضٌ ضرائبُها صِيغَتْ مِنَ الكَرَمِ

فقوله ذوائبها ، وترائبهـا ، مختلفٌ فى الوزن كما ترى ، ومنه قول ذى الرمة

كَحْلاءُ فى بَرَجٍ صفراءُ فى دَعَجٍ
كأنّهـا فضّةٌ قد مَسّهَا ذَهَبُ

فهـذا وأمثالهُ هل يكون معدوداً من الترصيع أم لا ؟ فالذى عليه الأكثر من أهل البلاغة كالمطرزى وعبد الكريم

صاحب البيان وغيرهما أنه لا محالة معدودٌ منه وإن كان مخالفاً في الزِّنة ، فأمّا ابن الأثير فقد أبى عدَّه منه ، وزعم أنه لا يعَدُّ في الترصيع الاّ الوجه الاول ، والأمرُ فيه قريب ، والمختارُ ما عليه الأكثر ، لأنه لا يعدُّ في التجنيس كما مرّ بيانه ، واذا بطل كونه تجنيساً وجب القضاء بكونه ترصيعاً إذ لا قائل بكونه خارجاً عن البابين

﴿ الصنف الثالث التطبيق ﴾

ويقال له التضادّ ، والتكافؤ ، والطِّبَاق ، وهو أن يؤتى بالشيء وبضدّه في الكلام كقوله تعالى (فَلَيَضْحَكُوا قليلاً وليَبْكُوا كثيراً) واعلم أن هذا النوع من علم البديع متفقٌ على صحة معناه وعلى تسميته بالتضادّ والتكافؤ ، وانما وقع الخلاف في تسميته بالطِّباق والمطابقة والتطبيق ، فأكثر علماء البيان على تلقيبه بما ذكرناه ، الا قُدَامَة الكاتب ، فانه قال لقبُ المطابقةِ يليق بالتجنيس ، لأنها مأخوذة من مطابقة الفرس والبعير لوضع رجْلِهِ مكانَ يده عند السير ، وليس هذا منهُ ، وزعموا أنه يسمى طِباقاً من غير اشتقاق ، والأجود تلقيبهُ

بالمقابلة ، لأن الضدّين يتقابلان ، كالسواد والبياض ، والحركة والسكون ، وغير ذلك من الأضداد من غير حاجة الى تلقيبه بالطِّباق والمطابقة ، لأنهما يُشعران بالتماثل بدليل قوله تعالى (سَبْعَ سموات طِباقا) أى متساويات ، ومنه طابقتُ النّعْلَ ، أى جعلته طاقات مترادفات ، فإذنْ الأخلقُ تلقيبُ هذا النوع بما ذكرناه من المقابلة ، ولا يلقَّب بالطباق كما قاله جوّابُ البلاغه ونقّادها البصيرُ والمهيمنُ على معانيها وخرِّيتها الخبيرُ قُدامةُ بن جعفر الكاتب فاذا تمهّدت هذه القاعدة فلنذكر كيفية التقابل فى الكلام ، لأن الشىء ربما قُوبل بضدّه لفظا ، وربّما قوبل بضدّه من جهة المعنى ، وتارة يُقابل بمخالِفِه ، ومرّة يُقابَل بما يُماثلهُ ، فهذه ضروب أربعة لا بد من تقريرها وتفصيلها بمعونة الله تعالى

﴿ الضرب الأول في مقابلة الشىء بضده ﴾

من جهة لفظه ومعناه ومثاله قوله تعالى (إنّ الله يأمُرُ بالعَدْلِ والإحسان وإيتاءِ ذى القُرْبى ويَنْهَى عن الفحشاء والمنكَر والبغى) فانظر الى هذا التقابل العجيب فى هذه الآية ما أحسنَ تأليفَه وأعجب تصريفه ، فلقد جُمِعَ فيه بين

مقابلات ثلاث ، الأولى منها مأمور بها والثلاث التوابع منهيٌّ عنها ، ثم هي فيما بينها متقابلة أيضاً ، ومن ذلك قوله تعالى (فليَضْحَكوا قليلا وليَبْكُوا كثيرا) فهذا وما شاكله فيه مقابلَتان ، الضحك بالبكاء ، والقليل بالكثير ، ومن ذلك قوله تعالى (لِكَيْلاَ تحزَنُوا على مَا فَاتَكُم ولا تفرَحوا بما آتاكُمْ) فقابل الفرح بالحزن الى غير ذلك من الآيات الدالة على الأضداد ، ومنه قوله تعالى (واعبُدوا اللهَ ولا تُشْرَكوا به شيئاً) فقابل الامر بالنهي وهما ضدان ، وقوله تعالى في قصة لقْمانَ (واقْصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُضْ من صوتكَ) ثم قال (ولا تُصاعِرْ خَدَّكَ للنّاسِ ولاَ تَمْشِ في الأرْضِ مَرَحاً) فنهاه عن المصاعرة ، والمشي في الارض مرحا ، وأمره بالقصد في المشي والغضّ من الصوت ، الى أمثالٍ له في القرآن كثيرة ، ومن السنة النبوية قولُه صلى الله عليه وسلم خيرُ المالِ عينٌ ساهِرَةٌ لعين نائمة ، فجمع فيه بين السهر والنوم وهما ضدان ، وأراد بالحديث أن أفضل الأموال هو هذه الأنهار الجارية فانها تجرى ليلاً ونهاراً وصاحبُها نائمٌ ، لا يشعُر بحالها ، ومن ذلك ما روتهُ

عائشةُ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لها : عليكِ بالرِّفقِ يا عائشةُ ، فانه ما كان فى شىء الا زَانَه ،ولا نُزِع من شىء الا شانَه ، فجمع بين الزين والشين وهما ضدان ، ومن ذلك ما ورد فى كلام امير المؤمنين كرم الله وجهه قال فى بعض خطبه : الحمد لله الذى لم يسبقْ لهُ حالٌ حالا ، فيكونَ أوّلاً قبل أن يكون آخرًا ، ويكون ظاهرًا قبل أن يكون باطنًا ، كلُّ مُسَمًّى بالوحدةِ غيره قليلٌ ، وكلُّ عزيز غيرَه ذليلٌ ، وكلُّ قويٍّ غيرَهُ ضعيفٌ ،وكلُّ مالك غيرَه مملوكٌ ، وكلُّ قادرٍ غيرَه يقدرُ ويعجز ، وكلُّ سميع غيرَه يَصَمُّ عن لطيف الأصوات ، ويُصِمُّهُ كثيرها ، وكلُّ بصير غيره يَعْمَى عن خفيّ الالوان ولطيف الاجسام ، وكل ظاهر غيره غيرُ باطن وكل باطن غيرَه غيرُ ظاهر ، فهذه مقابلات ثمانية قد جمع بينها فى صدر هـذه الخطبة مع ما فيه من السلاسة وجودة السبك ، ومن ذلك ما قاله خطابًا لعثمان : إنَّ الحقَّ ثقيلٌ مَرِئٌ ، والباطل خفيفٌ وبِئٌ ، وأنت رجل ان صدّقْتُكَ سخطت وان كذبتك رضيت ، فقابل الحق بالباطل ، والثقيل المرئ بالخفيف الوبئ والصدق بالكذب ، والسّخط بالرضا ، فهذه خمس

مقابلات قد اشتمل هذا الكلام القصير الذى أناف على كل غاية فى بلاغته ، ورقة لفظه وسلاسته ، وله عليه السلام من الطباق والجمع بين الأمور المتضادة خاصة فى علوم التوحيد وأحوال القيامة شيء كثير ، وقال الحجاج بن يوسف حين أراد قتل سعيد بن جبير : فلما أُحضِرَ اليه أمَرَ مَنْ كبَّه ، ثم قال مَنْ أنْتَ فقال أنا سعيد بن جبير فقال له : بل انت شقيٌّ بن كُسير فقابل سعيد بشقى وجُبير بكُسير ، وكان الخبيث من المعدودين فى الفصاحة ، والمشار اليهم فى البلاغة ، ومن كلام البلغاء قولهم : من أقعدتهُ نكايةُ اللئام ، أقامتهُ إعانة الكرام ، ومن ألبسهُ الليل لون ظَلْمائِهِ ، نزعه النهار عنه بضيائِهِ ، ومن الحريريات قوله لا رُفع نعشُك ، ولا وُضع عرشُك ، وقوله : ومن حكم بأن أبْذُلَ ويَخزن ، وألين ويخشُن ، وأذوب ويجمُد ، وأذكو ويخمُد فهذه كلها نقائض قد جمعها ، وقال بعض وزراء الفرس لمّا مات الامير : حرّكنا بسكونه ، ومن ذلك ما قاله ابن الاثير فى بعض رسائله قال فيه : صدرَ هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائهِ وطرف مستوحشٍ لفِراقه ، ومن المنظوم ما قاله البحترى (١)

(١) صوابه أبو صخر الهذلي

أما والذى أبكى وأضحك والذى
أمات وأحيي والذى أمره الأمرُ

ومنه قول دعبل

لا تعجبي يا سَلْمُ من رَجُلٍ
ضحِكَ الشيبُ برأسهِ فبكى

فانظر كيف جمع فى الأول بين الضحك والبكا، وبين الاحياء والإماتة، وفى الثانى بين الضحك والبكا لا غير، ومنه ما قاله أبو تمام

ما إن ترى الأحسابَ بيضاوضَّحاً
الا بحيث ترى المنايا سودا

ومنه قول الفرزدق

قَبَحَ الإلهُ بنِى كُليبٍ إنهم لاَ يَغدِرون ولاَ يفُونَ بجارِ

ومن ذلك ما قاله ابو الطيب المتنبي والطباق قليل فى شعره قال

ثِقالٌ اذا لاَقوا خفافٌ اذا دُعُوا
كثيرٌ اذا شَدُّوا قليلٌ إذَا عُدُّوا

فهذا ما يتعلق بهذا الضرب

﴿ الضرب الثانى ﴾

(فى مقابلة الشئ بضده من جهة معناه دون لفظه)

ومثاله قوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلَامِ ومَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صدْرَه ضَيِّقاً حَرَجاً) فقوله يهدى ويضل من باب الطباق اللفظى ، وقوله يشرح صدره مع قوله يجعل صدره ضيقا حَرَجا من الطباق المعنوى ، لأن المعنى بقوله يشرح يوسعه بالايمان ويفسحه بالنور حتى يطابق قوله ضيقاً حرجا وهكذا قوله تعالى (فأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وصَدَّقَ بالْحُسْنَى فسَنُيَسِّرُهُ للْيُسْرَى وأَمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى وكَذَّبَ بالْحُسْنَى فسَنُيَسِّرُهُ للْعُسْرَى) فقوله كذب وصدق ، وقوله اليسرى والعسرى من باب الطباق اللفظى ، وقوله أعطى مع قوله بخل ، فإنما هو من الطباق المعنوى ، لأن المعنى فى أعطى ، كَرُمَ ، ليطابق (بخل) فى معناه دون لفظه ، ومن ذلك ما قاله البحترى

يُقَيِّضُ لى من حيثُ لا أعلمُ النَّوى
ويَسْرِى الىَّ الشوقُ من حيثُ أَعْلَمُ

فقوله : لا أعلم مطابق لقوله (أعلم) من جهة معناه ، لان

معناه من حيث أجهل ، ومن التقابل فى الأضداد من جهة المعنى قول أبى تمام

مَها الوحشَ الا أنَّ هاَتا أوَانسٌ
قَنَا الخطِّ إلاَّ أنَّ تلكَ ذَوَابلُ

فأحدُ الإشارتين للحاضر ، وهو قوله (هاتا) وأحدهما للغائب وهو قوله (تلك) فالضدية حاصلة فيهما من جهة معناهما ، ومن ذلك ما قاله المُقَنَّعُ الكندى من أبيات الحماسة

لهم جُلُّ مالى إنْ تَتابع لى غِنًى
وإنْ قلَّ مالى لم أُكَلّفْهُمُ رِفْدًا

فهذا من الطباق المعنوى ، لأن قوله : إن تتابع لى غنى ، معناهُ ان كثر مالى ، وعلى هذا يناقض قوله (قلّ مالى)

﴿ الضرب الثالث ﴾

(فى مقابلة الشيء بما يخالفه من غير مضادة)

وذلك يأتى على وجهين ، الوجه الأولُ منهما أن يكون أحدهما مخالفاً للآخر ، خلا أن بينهما مناسبةً ، وهذا نحو قوله تعالى (إنْ تُصبْكَ حسنةٌ تسُؤْهمُ وإن تُصِبْكَ مُصيبةٌ يفرحوا بها) فالمصيبةُ مخالفة للحسنة من غير مضادّة ، الاّ انّ المصيبة لا تقارب الحسنةَ ، وانما تقارِب السيئة ، لأن كلّ

مصيبة سيئةٌ ، وليس كلُّ سيئة مصيبةٌ ، فالتقاربُ بينهما من جهة العموم والخصوص ، وهكذا قوله تعالى (أشدّاء على الكفّار رُحماء بينهمْ) فان الرحمة ليست ضدًّا للشدة ، وإنما ضدُّ الشدة اللّين ، خلاَ أنه لما كانت الرحمةُ من مسبَّبات اللّين ، حُسنت المطابقة بينهما ، وكانت المقابلة لائقة ومن هذا ما قاله بعض الشعراء

يجزُون من ظُلْم أهلِ الظّلْم مَغفِرَةً

ومِن إساءَةِ أهل السُّوء إحسَانا

فقابل الظلم بالمغفرة ، وليس ضدّا لها ، وإنما ضدُّه العدل ، الاّ أنه لما كانت المغفرة قريبةً من العدل من جهة أن العدل إنْصاف الغير بما يجب له أو يستحق عليه أو ترك ما لا يستحق عليه ، والعفو هو المغفرة وهو الصفح والتجاوُز ، وهو أعظم أنواع العدل وأعلاها حسنت المطابقة أيضاً،الوجه الثانى مالا يكون بينهما مقاربةٌ و بينهما بُعْدٌ لا يتقاربان،ولا مناسبة بينهما ، ومثاله ما قاله أبو الطيب المتنبي

لمَنْ تَطلبُ الدنيا اذا لمْ تُرد بها

سرُورَ مُحبٍ أوْ إساءَة مُجْرمٍ

فالمقابلة الصحيحة أن تكون بين محبّ ومبغض، لا بين محبّ ومجرم ، فان بين المحبّ والمجرم تباعداً كبيرا ، فانه ليس كلّ من أجرم اليك فهو مُبْغض لك ، ومما يجرى هـذا المجرى ما قاله بعض الشعراء

فكمْ من كريمٍ قدْ مَنَاهُ إلهُه
بمذمومةِ الأخلاق واسعةِ الْهَنِ

فقوله : بمذمومة الاخلاق واسعة الهن ، من باب المقابلة البعيدة التى لا مناسبة فيها وكان الأخلق (بضَيِّقَةِ الاخلاق واسعة الهَنِ)

﴿ الضرب الرابع المقابلة للشىء بما يماثله ﴾

وذلك يكون على وجهين : الوجه الأول منهما مقابلة المفرد بالمفرد ، وهذا كقوله تعالى (وَجزآءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها) وقوله تعالى (والّذين كسبُوا السيئاتِ جَزَاءُ سيئةٍ بمثلها) وقوله تعالى (هل جزاءُ الإحسان الاّ الاحسانُ) وقوله تعالى (مَنْ كَفَر فعليه كُفْرُه) وغير ذلك من الامور المفردة وانما أوردنا ما ذكرناه فى أمثلة المفردات ، لأن كل ما ذكرناه فى الأمثلة إما مبتدأ وخبرٌ كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئةٌ

مثلها) وإمّا شرْطٌ ومشروط كقوله تعالى (مَنْ كَفَرَ فعليه كفْرُه) وكلُّه معدودٌ فى حيز المفردات ، فلهذا عددْناه فى قسم المفرد ، فضابط المماثلة أن كلّ كلام كان مفتقراً الى الجواب ، فإنّ جوابه يكون مماثلا كما قررناه ، وإن كان غير جوابٍ جاز ورودُه من غير مماثلة لفظية ، ولهذا ورد قوله تعالى (من كفر فعليه كفره) ولو قال من كفر فعليه جرْمُه ، جاز ذلك ، لكن الاحسن المماثلة كما اسلفناه فأمّا اذا كان وارد فى غير جواب، فانه لا يلتزم فيه هذه المرّاعاة اللفظية ومثاله قوله تعالى (ووُفِّيَتْ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ وهوأعلمُ بما يفعَلونَ) ولو أراد المشاكلة اللفظية لقال : وهوأعلم بما يعملون ، لأن العمل والفعل مستويان من جهة المعنى ، وهكذا قوله تعالى (ولئن سألْتَهم ليقولُنَّ إنّما كُنّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ قلْ أبا لله وآياته ورسُولِهِ كنتم تستَهْزِؤُن) لأن الخوض واللعب هما من جهة المعنى استهزاءٌ بالله وإعْراضٌ عن أمره وأمر رسرله ، ولو أراد المشاكلة لقال:أفى الله وآياته ورسوله كنتم تخوضون وتلعبون ، فهذا ما يتعلق بالمفرد ، الوجه الثانى مقابلة الجملة بالجملة وهذا كقوله تعالى (ومَكَرُوا ومَكَرَ الله والله خير الْماكرين) وقولُه تعالى (ومَكَرُوا مكْراً ومَكَرْنَا مَكْراً) وقوله

تعالى (قلْ إِنْ ضَلَلْتُ فإِنَّما أَضِلُّ على نَفْسِى) والجملُ الشرطيةُ مترددة بين عدّها فى باب المفرد والجملة ، فإن عدت فى المفردات فلأنها وانْ كانت جُمَلا لـكنها قد نقصت عن الاستقلال بعقد حرف الشرط لها عقداً واحدا ، وإن عدت فى الجملة فلأن الظاهر من الشرط والجزاء جملتان ، فلمّا كان الأمرُ كما قلناه جاز فيها الوجهان ، وقد تكون الجملتان ما ضيتين ، أو مضارعتين ، أو تكون الاولى مضارعة ، والثانية ما ضية ، و بالعكس من هذا ، وأمثلةُ ذلك موجودة فى القرآن كثيرة فهذا ما اردنا ذكره فى المقابلة

﴿ تنبيه ﴾

اعلم أنّا لما فرغنا من تقسيم المقابلة و بيان أمثلتها فلنذكر على أثَرِهِ الـكلامَ فى المؤاخاة بين المعانى ، والمؤاخاة بين الالفاظ ، فأما المؤاخاة اللفظية فانه ينبغى ويحسُن مراعاتها ، كالإفراد والتثنية والجمع وغير ذلك من الأحكام اللفظية ، فاذا كان الأول مفرداً استحب فى مقابِلِهِ أن يكون مفردا مثله ، وهكذا اذا كان مجموعا ، ومن ثَمَّ عيب على أبى تمام قوله فى وصف الرماح

مُثقفَاَت سلَبْنَ العُرْبَ سُمْرَتَها
والرومَ زُرْقَتها والعاشِقَ القَصفَا

فلما ذكر العرب والروم كان الأخلق به ان يقول (والعشاق) ليُوافق الأول فى كونها جموعا كلّها، وكذلك لمّا ذكر الزرقة والسمرة كان الأولى أن يقول (دِقّتها) أو يقول (قَصفها) ليطابق ما سبق من ذلك وهكذا ورد فى قول ابى نواس فى وصف الخمر قال

صفراءُ مَجّدَها مَرازِبُها جَلّتْ عن النُّظَراء والمَثْل

فجمع ثم افرد فى معنى، فكان الأحسن أن يقول (والامثال) ليطابق النظراء، أو يقول (النظير) ليطابق (المثل) وهكذا ورد قوله أيضا على مثل ذلك

الا يا ابن الذين فَنُوا فَمَاتُوا أما والله ما ماتُوا لتَبقَى
وما لكَ فاعلَمَنْ فيها مُقَامٌ اذا استكمَلْتَ آجالاً ورِزْقَا

وكان الأحسن أن يقول: إِمّا أَجلاً ورزقا فيفردهما جميعاً، وإِمّا أنْ يقول: آجالا وارزاقا، فيجمعَها جميعا من غير مخالفة بينهما، وهذا الذى ذكرناه من هذه المراعاة ليست على جهة الوجوب، بل المراد من ذلك طريقة الحسْن والإِعجاب،

ولهذا ورد فى كتاب الله تعالى كقوله تعالى (طَبَعَ اللهُ على قلوبِهِمْ وسَمْعِهِم وأبصارهم) وقوله تعالى (شَهِدَ عليهم سَمْعُهُم وأبصارُهم وجلودُهم) وقوله تعالى (خَتَمَ اللهُ على قلوبهم وعلى سمعِهم وعلى أبصارهم غشاوة) فلو كان ركيكا لما ورد فى القرآن، وهو أفصح الكلام كلّه، هذا كله فى اعتبار المؤاخاة اللفظية، وأمّا المؤاخاة المعنوية فهى واردة فى القرآن كثيرا ، وهذا إنما يكون فى فواصل الآى ، فانها تأتى مطابقةً على ما سبق من معنى الآية ومثاله قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ من السماء ماء فتصبِحُ الارضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطيفٌ خبيرٌ) وكقوله تعالى (لَهُ مافى السموات وما فى الأرض إِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِىُّ الحميدُ) وقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سخَّرَ لكُمْ ما فى الأرضِ والفُلْكَ تَجْرِى فى البَحْرِ بأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السماءَ أَنْ تَقَعَ على الأرضِ الاّ بإِذنه إِنَّ اللهَ بالناسِ لرءوفٌ رَحِيمٌ) فالآية الاولى انما فصلَها بقوله (لطيف خبير) لما فيه من المطابقة لمعناها ، لأنه ضمنَّهَا ذكر الرحمة للخلق بإنزال الغيث لما فيه من المعاش لهم ولأنعامِهِم ، فكان لطيفا بهم خبيرا بمقادير مصالحهم ، وأمّا الآية الثانية فانما فصلَها بقوله

الغنىُّ الحميد ، ليطابق ما أودعه فيها ، لأنه لما ذكر أنه مالكٌ لما فى السموات والارض لا لحاجة ، قابله بقوله لهو الغنىُّ ، أى عن كل شئ لأن كل غنى لا يكون نافعا بِغناه الا اذا كان جوادا به منعما على غيرهِ فإنه يحمَده المنعَم عليه ، فذكَر (الغَنِىَّ) ليدلَّ به على كونه غير مفتقر اليها ، وذكَر (الحميد) لَمَّا كان جوادا بها على خلقه ، فلا جَرَمَ استحق الحمد من جهتهم ، وأمّا الآية الثالثة فإنما فصلها (برءوف رحيم) لأنه لمّا عدّد جلائل نعمه وكانت كلها مسخّرة مدبّرة وكانوا لولا رحمته متعرِّضين بصددِها لمتالفَ عظيمة من الاهوال البحرية والآفات السماوية ، فلمّا كانت فى أنفسها متعرضةً لهذه الأمور عقبها بذكر الرأفة والرحمة لينبّه على كمال لطفه وعظيم رحمته بالخلق ، وهكذا القول فى سائر الفواصل القرآنية ، فإنك لا تزال تطْلع منها على فوائد مناسبة لتلك الفاصلة كما أشرنا اليه

﴿ الصنف الرابع رد العجز على الصدر ﴾

اُعلم أنا قد ذكرنا الاشتقاق فيما سلف وقررنا أسراره ، فأمّا ردّ العجز على الصدر فظاهر كلام المطرزى وعبدِ الكريمِ صاحب التبيان أن أحدهما مخالفٌ للآخر ، ولهذا أفردا

لكل واحد منهما بابا على حياله ، وكلاهما معدود فى علم البديع ، والذى عندى أنهما متقاربان ، وأنْ ردّ العجز على الصدر أعمّ من الاشتقاق ، لأن ردّ العجز على الصدر كما يرد فى مختلف اللفظ ، فقد يكون واردا فى التساوى ، بخلاف الاشتقاق ، فإنه إنما يكون واردا فيما اختلف لفظه وبينهما جامع فى الاشتقاق وقد مرّ فلا وجه لتكريره ، والذى نتعرض لذكره إنما هو ردّ العجز على الصدر كما نقرره بمعونة الله ، وهو واردٌ فى النظم تارة ، وفى النثر أخرى ، ويأتى على ضروب

(الضرب الاول) أن يكون الصدر والعجز متفقين فى الصورة ، وهذا كقوله تعالى (وتَخْشى الناسَ واللهُ أحَقُّ أَنْ تخْشَاهُ) وقوله تعالى (لا تَفْتَرُوا على الله كَذِبًا فيُسْحتَكم بعذابٍ وقد خَابَ مَنِ افترى) ومن كلام البلغاء : الحيلة تركُ الحِيلة ، وقولهم : القتلُ أنْفى للقتل ، وفى الحريريات : وتحمِي عن المنكَرِ ولا تتحاماه، ومن النظم ما قاله بعض الشعراء

سُكْرَانِ سُكْرُ هوًى وسكرُ مُدمةٍ
أنىَّ يُفِيقُ فتًى به سُكْرَانِ

(الضرب الثانى) أن يتفقا صورة ويختلف معناهما ، وهو

يأتى أحسن من الأول وأدخل فى الاعجاب ، وهذا كما قاله بعضهم

يَسَارٌ من سجيتِهَا المَنَايَا ۝ ويُمْنَى من عَطِيتِّهَا اليَسَارُ

فاليسار الأول هو الجارجة ، واليسارُ الثانى من الميسرة ، وهو نقيض الإعسار

(الضرب الثالث) أن يتفقا فى المعنى ويختلفا صورة ، وهذا كقول عُمَر ابن أبى ربيعة القرشى

واستبدَّتْ مرّةً واحدةً ۝ انّما العاجزُ مَن لا يستبدّ

وقال آخر

تمنّيتُ أن ألقى سُلَيْماً ومالكاً

على ساعةٍ يُنْسِي الحِمام الأمانيا

فقولُه تمنيت مع الأمانى متفقان فى المعنى مختلفان فى الصورة كما ترى

(الضرب الرابع) ان يتفقا فى الاشتقاق ويختلفا فى الصورة ، وهـذا مثاله ما قاله بعض الشعراء

ضرائبُ أبدعتَهـا فى السما

ح فلسنا نرى لك فيها ضَرِيباً

ومنه قول جرير

أخلَبْتِنَا وصدَدْتِ أمَّ مُحَلِّمٍ ‏ ‏ ‏ ‏ أفتجمَعِينَ خِلابَةً وصُدُوداً

(الضرب الخامس) أن لا يلتقيا فى الاشتقاق ويتفقا فى الصورة، وهذا كقوله فى الحريريات

ولاحَ يلْحَى على جرّى العنَانَ الى

مَلْهًى فسُحْقاً له من لائحٍ لاَحِ

لأنّ قوله(١) لاح بالشئ، اذا ذهب به، فالأول بمعنى الذهاب، وقوله بعد ذلك لاحٍ اسم فاعل من قولهم لحَاهُ اذا ذمه، ولَحَاهُ اذا نازعهُ الأمر، فالصدر من ذوات الثلاثة، والعجز من ذوات الاربعة (٢)

(الضرب السادس) أن يقع أحدُ اللفظين فى حشو المصراع الأول من البيت ثم يقع الآخر فى عجز المصراع الثانى وما هذا حاله يقع على أوجهٍ ثلاثة، أولُها أن يكونا متفقين صورةً ومعنى، وهذا كقول ابى تمام

ولم يحفظْ مُضاعَ العلم شئٌ ‏ ‏ ‏ ‏ من الأشياء كالمالِ المُضَاعِ

---

(١) هذا غلط. وانما لاح . بمعنى ظهر

(٢) هذا غلط واضح

وثانيها أن يقعا على هذا الحدّ ، ويتفقا صورة لا معنى ، ومثاله قول من قال

لا كان انسانُ تَيَمَّمَ صائدا صيدَ الْمَهَا فاصطَادَهُ إِنْسَانُها

وثالثها أن يقعا على هذه الصفة لكنهما يتفقان معنى ، ويختلفان من جهة الصورة ، ومثاله قول امرئ القيس

اذا المرءُ لم يَخْزُن عليه لسانَه فليس على شَيْءٍ سواهُ بخَزَّان

وفى الحريريات

ولو استقامَتْ كانت الـ أَحْوالُ فيها مستقيمَهْ

(الضرب السابع) أن تقع إحدى الكلمتين فى آخر المصراع الأول موافقة لما فى عجز المصراع الثانى ، ومتى كان الأمر كما قلناه فهو على وجهين ، أحدهما أن تكون الموافقة فى المعنى والصورة ، ومثاله ما قاله أبو تمام فى بعض مدائحه

ومَن كان بالبِيضِ الكواعِبِ مُغْرَماً

فما زلت بالبيض القواضب مُغْرَماً

فالغرامُ بالشئ ، الولوعُ به ، وهما متفقان فى هذا المعنى كما ترى مع اتفاقهما فى الصورة والبناء . وثانيهما أن تكون الموافقة بينهما فى الصورة دون المعنى ، ومثاله ما ورد فى الحريريات

فمشغوفٌ بآيات المثانى   ومفتونٌ برنّات المثانى

فالمثانى الاول هو آيات الفاتحة ، وسُميت مثانِىَ لانها تُثْنَى فى الصلاة والمثانى الثانى ، هو ما يُثْنَى من الأوتار

(الضرب الثامن) أن يلاقىَ أحدُ اللفظين الآخر فى الاشتقاق ويخالفه فى الصورة ، ومثاله قول البحترى

ففِعْلُك ان سُئِلْتَ لَنَا مُطيعٌ

وقولُك إِنْ سَأَلْتَ انا مُطَاعُ

فكلاهما مشتق من الطاعة ، لكن الأول اسم فاعل من أطاع ، والثانى اسم مفعول من أطاع أيضاً

(الضرب التاسع) ان يقع أحدهما فى أول المصراع الثانى موافقاً لما فى عَجزِه صورةً ومعنًى ، ومثاله قول بعضهم

وان لم يكن الا مُعَرَّجُ ساعةٍ

قليلاً فإنى نافعٌ لى قليلُها

فالقليل الأول والثانى مستويان فى لفظها ومعناهما ، وَلاَ يقْدَحُ كون أحدهما معرفة والآخر نكرة فيما نحن فيه ، فإن ذلك بمعزل عما نريده فى المثال

(الضرب العاشر) أن يكونا مشتبهين فى الاشتقاق لفظاً ، والمعنى بخلافه ، ومثاله ما ورد فى الحريريات وهو قوله

ومُضْطَلِعٌ بتَلْخِيصِ المعانِى ومُطَّلِعٌ الى تَخْلِيصِ عَانى

فالمعانى الأول ، اشتقاقها من عَنَاه الامر يعنيه اذا ألم به بقلبه، ولامُه ياء كما ترى ، والعانى الثانى ، اشتقاقهُ من عنا يعنو اذا هلك والعناء هو الهلاك، ولامُه واوٌ فهما يشتبهان فى اللفظ، و بينهما ما ترى من المخالفة وقوله مضطلعٌ ، وزنه (مفتعلٌ) من قولهم اضطلع الامر ، إذا نهض به وقوله (مطّلع) وزنه (مفتعلٌ) من اطّلع على الشئ اذا أشرف عليه ، فهذا ما أردنا ذكره فى كيفية رد العجز على الصدر على هذه الكيفيات المختلفة ، وقد عدّ علماء البيان فى ذلك أنواعا كثيرة لم ترد فى كلام البلغاء فأعرضنا عن ذكرها كما أعرض عنها غيرُنا من أرباب هذه الصناعة و بالله التوفيق

﴿ الصنف الخامس لزوم ما لا يلزم ﴾

ويقال له الإعنَاتُ، ويرد فى المنظوم والمنثور من الكلام، ومعناه فى لسان علماء البيان أن يلتزم الناظم قبل حرف الروِىّ حرفا مخصوصا ، أو حركةً مخصوصة من الحركات قبل حرف الروى أيضاً ، وهكذا القول فى الرّدْفِ ، فانه يجعله على حدّ حرف متماثِلٍ ، وهكذا اذا ورد فى النثر يكون على هذه

الطريقة كما سنوضحه بالامثلة ، فحاصلُ الأمر فى لزوم ما لا يلزم ، هو أن يلتزم حرفاً مخصوصاً قبلَ حرف الروىّ من المنظوم أو حركة مخصوصة ، فما هذا حاله اذا التزمه الناثرُ أو الناظمُ فهو إعنَاتٌ لنفسه وكدٌّ لقريحته وتوسُّعٌ فى فصاحته وبلاغته ، وإن خالفه فلا عيبَ عليه فى ذلك ، وكان له فى تغييره مَنْدُوحَةٌ بخلاف ما اذا كان قبل حرف الروىّ رِدْفًا وهو الواو والياء ، فانّ ما هذا حاله لا يجوز تغييره الى غيره ، فلا يقال إنه من باب لزوم ما لا يلزم ، بل لازمٌ للناثر والناظم أن يأتى به على حاله ، خَلَا أنه يجوز معاقبةُ الواو للياء ، ومعاقبةُ الياء للواو ولا يجوز معاقبةُ الألف لهما ، فعلى هذا يجوز عمودٌ ، وشديد ، ولا يجوز ميعاد ، فى تقابل الأسجاع ، ولهـذا جاء قوله تعالى (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وإِنَّه على ذلك لشهيدٌ ، وإِنهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ) فحرفُ الرِّدْفِ ليس من باب لزوم ما لا يلزم ، بل هو لازم بكل حال ، فاذا عرفت هذا فلْنورد أمثلته لِينكشف أمره ، فما جاء منه فى التنزيل قوله تعالى (والطُّورِ وكِتَابٍ مَسْطُورٍ) وقوله تعالى (اقْرَأْ باسْمِ ربك الذى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ

مِنْ عَلَقٍ) وقوله تعالى (فذَكِّرْ فما أَنْتَ بنعمة ربك بكاهنٍ ولا مَجْنُونٍ أمْ يقولون شاعرٌ نَتَربَّصُ به رَيْبَ المَنُونِ) وقوله تعالى (وأصحابُ اليمينِ ما أصحابُ اليمينِ فى سدرٍ مَخْضُودٍ وطَلْحٍ منضودٍ) وقوله تعالى (فإن انْتَهَوا فإنَّ اللهَ بما يعملون بصيرٌ وإنْ تولّوا فاعلَموا أنّ اللهَ موْلاكُم نعمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصيرُ) وقوله تعالى (يا أبتِ إِنّى أَخافُ أنْ يَمَسَّكَ عذابٌ من الرحمن فتكُونَ للشيْطانِ وَليًّا قال أَراغبٌ أنتَ عن آلِهَتِي يا إِبراهيمُ لئن لمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنى مليًّا) وهذا الأُسلوب فى القرآن على القلّة ، وما ذاك الا لأنه غيرُ لازمٍ من الاتيان به فى البلاغة والفصاحة ، وقد عاب ابن الأثير على مَن قال إنّ قوله تعالى (إِن المتقين فى جناتٍ ونعيمٍ فاكِهين بما آتاهمْ رَبُّهُم ووقاهمْ ربهمْ عذابَ الجحيم) من باب لزوم ما لا يلزم لما ذكرناه ، من أنّ حرف الرويّ يجب التزامُه بكل حال على الناثر والناظم ، فلا يعدُّ من هذا الباب ، وانما يعدُّ قوله تعالى (قال قَرينُه رَبَّنَا ما أطْغَيْتُه ولكنْ كان فى ضلالٍ بعيدٍ قال لا تَخْتَصِمُوا لدىَّ وقد قدَّمْتُ إِليكمُ بالوعيدِ) وهذا بعينه يعدُّ فى أمثلة لزوم ما لا يلزم ،

ومن السُّنّة النبوية قوله عليه السلام فإن كان كريماً أكرمك وإنْ كان لئيماً أسلمكَ ، ومن ذلك قوله : وليُحسنْ عمله ، وليُقصّرْ أملَه ، وقوله صلى الله عليه وسلم فلا يُغنى عنكم الاّ عملٌ صالحٌ قدّمتموه أو حسنُ ثوابٍ حُزْتموه ، وقوله : تبوّءُهم أجْداثَهُمْ وتأ كُلَ تُراثَهُمْ وقوله : حسنت خليقتُه وصلُحت سريرتُه ، وقوله : إنّ أفضل الناسِ عبدٌ أخذَ من الدنيا الكفافَ ، وصاحبَ فيها العفاف ، ومنه قوله : فى صفة الدنيا واهجُروا لذيذَ عاجلِها لكَريهِ آجلِها ، الى غير ذلك من الامثلة الواردة فى كلامهِ ، ولا تكاد توجد فى السّنة الا على القلّة كما ذكرنا أنهُ فى القرآن قليل ، ومن طلبه فيها وجده ، ومن كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه فى مثاله ، وكلامُه مملوءٌ منه ، منه فى صفة الموت فكأنْ قد أتاكم بَغْتَةً ، فأسكت نَجيَّكم وفرّقَ نَديَّكم ، وعفّى آثاركم ، وعطّلَ ديارَكم ، وبعَثَ وُرّاثَكم يقتسمونَ تُراثكم ، وقال فى صفة التقوى : وهى عتقٌ من كلّ مَلَكَةٍ ونجاةٌ من كل هلْكَةٍ ، ومن ذلك قوله: واعلموا أنكم فى زمانٍ القائلُ فيه بالحق قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللازمُ للحقّ ذليل ، وقال فى خطبة: لا تدركه

الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، وقوله فى وصف الفتنة وأهلها: قوم شديدٌ كَلَبُهم ، قليلٌ سَلَبُهم ، وقوله عليهِ السلام فى صفة الدنيا : قد صار حرامُها عند أقوام بمنزلة السِّدْرِ المخْضُود ، وصادفْتموها والله كالطلحِ المنضود ، ومن ذلك ما ورد فى كلام البلغاء وهذا كقول عمر رضى الله عنه : ولا يكنْ حُبُّك كَلَفاً ، ولا بغضُك تلفاً ، ومن ذلك ما قاله ابن الأثير فى ذمّ رجلٍ يُوصَف بالجُبْن : اذا نَزَلَ به خطْبٌ مَلَكَه الفرَق ، واذا ضَلّ فى أمرٍ لم يؤمن الا اذا أدْرَكه الغرَق ، فمراعاةُ الراء قبل القاف من باب لزوم ما لا يلزم كما قررناه أوّلاً ، ومن ذلك قوله ايضا فى كتاب الى بعض إخوانه : الخادم يُهْدى من دعائه وثنائه ما يسلك أحدُهما سماءً والآخر أرْضا ، ويصونُ أحدهما نَفْساً والآخر عرْضا ، فالتزام الراء قبل الضاد لزوم مالا يلزم ، ومن ذلك ما قاله فى كتاب آخر له : ومهما شَدَّ به عضُدَ الخادم من الإنعام فانه قوةٌ لليد التى خوَّلَتْه ، ولا يقوى تصَعُّدُ السحب الا بكثرة غيثها الذى أنْزَلَتْه ، وغير خافٍ أنَّ عبيدَ الدولةِ لها كالعَمَد من طرافِها ، ومركَز الدائرة من أطرافها ، ولا يؤيد السيف الا بقائمه ، ولا

ينهض الجناح الا بقوادمه ، فهذه الفواقرُ كلها من باب لزوم مالا يلزم ، ومن ذلك ما قالته امرأةُ لقيط بن زُرَارة تثنى عليه بعد قتله ، واستخلافها لغيره إنه خرج يوما وقد تَطَيَّبَ وشَرِبَ فطردَ البقر وصَرَعَ منها ، ثم أتانى وبه نَضْحُ دمٍ فضمَّنى ضمّة ، وشمَّنى شمّة ، فليتنى مِتُّ ثَمَّه ، فهذا الكلام من الباب الذى نحن بصدده ، ومن المنظوم ما قاله ابن الرومى وكان من أكثر الناس وَلَعاً بلزوم ما لا يلزم فى أشعاره

لِمَا تُؤْذِنُ الدنيا به من صُروفها
يكونُ بكاءُ الطفلِ ساعةَ يُولَدُ
وإلاَّ فَمَا يُبْكيهِ منها وإنّهُ
لأَوْسَعُ مما كان فيه وأَرْغَدُ
إِذا أبصر الدنيا استهلَّ كأَنَّهُ
بها سوف يلْقَى مِن أذَاها يُهَدَّدُ

فالتزام حركة الفتح قبل حرف الروى من باب لزوم ما لا يلزم كما مر تقريره وقال المعرى

ضحِكْنا وكان الضحكُ منا سفاهةً
وحُقَّ لسُكّان البسيطة أنْ يَبْكُوا

يُحَطِّمُنَا صَرْفُ الزمانِ كأَننا
دُجَاجٌ ولكن لايُعَادُ لهُ السبْكُ

وقال فى الحريريات

مَنْ ضَامَهُ أوْ ضَارَهُ دَهْرُه
فليقصدِ القاضىَ فى صَعْدَهْ
سماحهُ أزرَى بمن قبلَه
وعدلهُ أتعب من بَعْدَهْ

وهذا وأمثاله من باب لزوم مالا يلزم فى الحركة والحرف جميعاً كما ترى ، ومن أبيات الحماسة قوله

ان التى زعمتْ فُؤَادَكَ مَلَّها
خُلِقَتْ هَوَاكَ كما خُلِقْتَ هوىً لَهَا
بيضاءُ باكَرَهَا النعيمُ فصاغَها
بلَبَاقَةٍ فأدقَّها وأجلَّها
حجبَتْ تَحيَّتَهَا فقلتُ لصاحبي
ماكانَ أكْثَرَهَا لَنَا وأقَلَّها
فاذا وجدتُ لها وساوسَ سلْوَةٍ
شفَعَ الفؤادُ الى الضمير فَسلَّها

﴿ الصنف السادس فى ذكر اللَّف والنشر ﴾

وهو فى لسان علماء البيان عبارة عن ذكر الشيئين على جهة الاجتماع مطلقين عن التقييد ثم يوفّى بما يليق بكل واحد منهما اتكالاً على أن السامع لوضوح الحال يرُدّ الى كل واحد منهما ما يليق به ، وهو فى الحقيقة جمع ثم تفريق ، واشتقاقهما من قولهم : لَفَّ الثوب اذا جمعه ، ونشر الثيابَ اذا فرّقها ، ومنه قوله تعالى (ويَنْشُرُ رحمتَه) أى يفرّقها فى عباده على قدر ما يعلمُه من الصلاح ، ومثاله من التنزيل قوله تعالى (ومِنْ رحمتِهِ جعل لكمُ الليلَ والنهارَ لتسكُنوا فيه ولتبتَغُوا مِن فضلِهِ) فجمع بين الليل والنهار بواو العطف ، ثم بعد ذلك أضاف الى كل واحد منهما ما يليق به ، فأضاف السكون الى الليل ، لأَن حركاتِ الخلق تسكُن ليلا لأَجل النوم ، ثم قال بعد ذلك (ولتبتغوا من فضله) أضافه الى النهار ، لأَن ابتغاء الارزاق إنما يكون نهاراً بالتصرف والاضطراب ، واكتفى فى الاضافة بما يعلم من ظاهر الحال ، وهو أنّ السكونُ مضافٌ الى الليل ، لما فيه من الاستراحة بترك التصرفات ، وأن الابتغاءَ مضاف الى النهار لما يظهر فيه من الحركة ، ولم

يقل جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار لتبتغوا من فضله ، إيثاراً لما يظهر فى اللّف بعده النشرُ ، من البلاغة وحسن التأليف ، ومنه قوله تعالى (وقالُوا لَن يَدْخُلَ الجنةَ إلاّ مَنْ كانَ هُوداً أو نَصَارَى) فقوله وقالوا أراد به اليهود والنصارى فجمعها فى الضمير ولفّهما بذكره ، ثم إنه نشرهما بعد ذلك بقوله (مَن كان هودا أو نصارى) والتقدير فيه وقالت اليهود لن يدخل الجنةَ الا مَن كان هودا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصرانيا ، فجمعه بما ذكرنا ، ثم فصّله ولم يقل ذلك كلّ واحدة من الطائفتين ، بل أراد التكرير كما أشرنا اليه ، ومن السنة النبوية قوله صلى الله عليه وآله : فإنّ المرْءَ بين يَوْمَين يومٌ قد مضى أُحْصِيَ فيه عمله فَخُتِّمَ عليه. ويومٌ قد بَقِيَ لا يدري لعله لا يصلُ اليه ، فقوله بين يومين ، يكونُ من اللّف ، لاشتمالهما على ما يكون ماضياً ومستقبلاً ، وهذه هى فائدة اللف ثمّ إنه نَشَرهما بعد ذلك بقوله : يوم قد مضى احصى فيه عمله ، فهذا يتناول الماضى ، ويوم قد بقى لا يدرى ما يفعل فيه ، وهذا يتناول المستقبل ، فهذه هى حقيقة اللف والنشر كما قررناه ، ولو لم يُرِدِ اللّفّ والنشر لقال فيه : ان المرء بين يومين يوم قد مضى ويوم قد بقى ، وهو اذا كان على هذه

الصورة لم يكن من هذا الباب فى وِرْدٍ ولا صَدَر ، ومن هذا قوله صلى الله عليه وآله : وقد رأيتم الليلَ والنهارَ كيف يُبْليان كلَّ جديد ، ويُقَرِّبان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، فلَفَّ الليل والنهار جميعا ، ثم فصّل أحكامهما بعد ذلك ، وهذا انما يكون لفاً ونشرا اذا كان بِلَى أحدهما مخالفا لبِلَى الآخر ، وهكذا حال التقريب ، فأمّا اذا تماثلا فليس منه ، وفيه تعسفٌ ، والأحقُّ فى المثال غيره ، ولو لم يُرِد اللفّ والنشر لقال : وقد رأيتم الليل كيف يبلى كل جديد ويقرب كل بعيد ويأتى بكل موعود ، ورأيتم النهار كيف يُبلى كل جديد ويقرب كل بعيد ويأتى بكل موعود لم يكن من باب اللف النشر ، ومن ذلك قوله عليه السلام انما يؤتى الناس يوم القيامة من إحْدَى ثلاث ، إمَّا من شُبْهَةٍ فى الدين ارتكبوها ، أو شهوةٍ للذَّةٍ آثَرُوهاَ ، أو عَصَبِيَّةٍ لَحِمِيَّةٍ أَعمَلُوها ، فاذا لاحَتْ لكم شبهةٌ فاجلُوها باليقين ، واذا عرضَتْ لكم شهوةٌ فاقْمَعُوها بالزُّهد ، واذا عَنَّتْ لكم عصبِيَّةٌ فادْرأُوها بالعفو ، فانظرُ أيها المتأمّل ما حواه هذا الكلام من لطائف الإجمال والتفصيل ، واشتمل عليه من محاسن اللّف والنشر ، ومَنْ تأمل كلامَه عليه السلام وجد فيه ما يكفى ويَشْفِى من ذلك . ومن كلام

أمير المؤمنين كرم الله وجهه قولُه : وما أعَدَّ اللهُ للمطيعين منهم والعُصاة من جنّةٍ ونارٍ وكرامة وهوَانٍ ، فقوله للمطيعين والعصاة هذا هو اللّف وقوله من جنة ونار أراد الجنة لأهل الطاعة والنار لأهل المعصية وقوله وكرامة وهوان ، اراد الكرامة لأهل الطاعة والهوان لأهل المعصية ، فما هذا حاله يطلق اتّكالاً على قريحةِ السامع فى رَدِّ كل شئ الى مايليق به ، ومن ذلك قوله عليه السلام الناسُ ثلاثةٌ ، عالمٌ ربّانِيٌّ ، ومُتعلِّمٌ على سبيلِ نَجَاةٍ ، وهَمَجٌ رَعَاعٌ أتْبَاعُ كلِّ نَاعِقٍ ، فأشار بقوله ثلاثة الى اللفّ ، ثم نشره بعد ذلك بما أشار اليه من التفاصيل ، ومن الأمثلة فى المنظوم ما قاله بعض الشعراء

ألَسْتَ أنتَ الذى من وَرْدِ نِعْمَتِهِ

ووِرْدِ حشمته أجْنِي وأغْتَرِف

فقوله : أجْنِي وأغترف ، نشْرٌ لما تقدم من اللفّ فقوله أجْنِي ، بيانٌ للوَرْدِ الذى استعاره للنعمة ، وقوله أغترف بيان للورْد الذى استعاره للحشمة ، ومن الحريريات قوله وبَنُوهَا ومَغَانِيهِمْ نجوم وبُرُوجُ ، فالنجوم للابناء ، والبُروج للمَغَانى . وقوله

وكم من قارئٍ منها وَقَارِى
أَضَرَّا بالجفونِ وبالجِفَانِ

فقوله بالجفون ، راجعٌ الى القارئ لما يحصل من الخشوع ولين القلب بقراءته ، وقوله بالجفان ، راجعٌ الى القارى من القِرَى ، فلفّهما أولاً ، ثم نشرهما بعد ذلك . ومن ذلك ما قاله ابن الرومى

آرَاؤُكم ووجُوهُكم وسيُوفُكم
فى الحادثاتِ اذا دَجَوْنَ نجومُ
فيها مَعَالمُ للهدى ومَصَابِحٌ
تَجلُو الدُّجى والأُخرَيَاتُ رُجُومُ

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث
وأولهُ الصنف السابع
التخييل